



-1-

مشكلة هذا الرجل أنه يقرأ كثيراً، وقد جمع في مكتبه رفّين كاملين من كتب "أدب السجون" - التي تروي قصص وذكريات الحبس والتعذيب. وقرأها كلها، أكثرها من مصر عبد الناصر وقليل منها من مغرب الحسن وعراقي صدام، حتى صار يُغمض عينيه ويُسرح في عالم الخيال فيرى حياة كاملة في الحبس والمعتقلات، ويحسّ بما فيها من معاناة وكربات وعذابات، ويتصوّر ما يختلّ في نفوس المحبوسيين من مشاعر وما يدور في أذهانهم من أفكار.

-2-

وَقَعَتْ فِي يَدِهِ ذَاتُ يَوْمٍ رُوَايَةٌ صَغِيرَةٌ اسْمُهَا "الْوَرْطَة". كَانَتِ النَّافِذَةُ الْأُولَى الَّتِي أَطْلَّ مِنْهَا عَلَى عَالَمٍ "تَدْمِرَ" الرَّهِيبِ. كَانَتِ النَّافِذَةُ ضَيْقَةً، وَلَكِنَّ مَا رَأَاهُ مِنْ خَلَالِهَا كَانَ أَكْثَرُ مَا تُطْبِقُ نَفْسُهُ الْمَرْهَفَةَ، فَبِقِي أَسَابِيعَ لَا يَسْوَغُ لَقْمَةً مِنْ طَعَامٍ وَلَا يَسْتَغْرِقُ سَاعَةً فِي مَنَامٍ، حَتَّى أَرْغَمَ نَفْسَهُ عَلَى نَسْيَانِ تَلْكَ الصُّورَةِ الْمَرْعِبَةِ لَأَنَّهَا - كَمَا أَوْحَى لِنَفْسِهِ - خِيَالَاتُ أَدِيبٍ فَنَانٍ. ثُمَّ التَّقَى بَعْدَ سَنَوَاتٍ بِالْأَسْتَاذِ شَرِيفِ الرَّاسِ فَسَأَلَهُ: هَلْ كَانَتْ تَلْكَ رُوَايَةً حَقِيقِيَّةً؟ قَالَ: إِنَّ شَخْصِيَّاتِ الرُّوَايَةِ مُتَخَيلَةٌ، وَلَكِنِي لَمْ أَسْتَخْرِجْ أَحَادِيثَهَا وَتَفَاصِيلَهَا مِنْ عَالَمِ الْعَدْمِ، بَلْ جَمَعْتُهَا مِنْ شَهَادَاتِ حَقِيقِيَّةٍ حَصَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ شَهُودٍ كَانُوا فِي ذَلِكَ الْجَحِيمِ. رَدَّ صَاحِبُنَا عَلَى مَؤْلِفِ الرُّوَايَةِ بِأَسَى: لَيْتَكَ قَلْتَ إِنَّهَا مَحْضُ خِيَالَاتٍ! ثُمَّ تَجَدَّدَ حَزْنُهُ فَبَقَى زَمَانًا آخَرَ لَا يَهْنَأُ بِطَعَامٍ أَوْ مَنَامٍ.

ثم انفتحت نافذةً أعرض على ذلك العالم الرهيب؛ صدرت رواية محمد سليم حمّاد: "تدمر شاهد ومشهود". حرص صاحبنا على تلقي الخبر من مؤلفها الأردني الزرقاوي، الذي قذفته المخابرات السورية على الحدود الأردنية بعدما جبسته أحد عشر عاماً في الباستيل الرهيب. لم يهتم بسماع المزيد من الفظائع والأهوال، فالرواية (الشهادة) كانت كافية، لكنه كان مهتماً بمعرفة مصير بعض الأشخاص الذين انقطعت أخبارهم منذ بداية المأساة، وهم ابن عم وابنا حالة كانوا من خيرة شباب الشام. تذكر محمد سليم ابن العـمـ، إنه يعرفـهـ، كان في مهجـعـ مجاور يمضي الأيام الثقيلة الطويلة المحملـةـ بالقهر والعنـادـ. وابـناـ الخـالـةـ؟ قالـ:ـ رـحـمـهـمـاـ اللـهـ،ـ أـعـدـمـاـ فـيـ السـنـةـ الـأـوـلـىـ بـتـهـمـةـ حـمـلـ السـلاحـ.ـ قالـ صـاحـبـناـ:ـ رـحـمـهـمـاـ اللـهـ،ـ اـرـتـاحـاـ مـنـ بـلـاءـ الدـنـيـاـ وـأـقـبـلاـ عـلـىـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ.

لم يكن صاحبـناـ قد بـرـئـ بـعـدـ منـ جـراـحـ القـلـبـ حينـماـ نـكـاتـهـ الشـاهـادـةـ الجـديـدةـ:ـ "ـخـمـسـ دـقـائـقـ وـحـسـبـ"ـ،ـ التي روـتـ فيـهاـ اـبـنةـ حـمـةـ المؤـمنـةـ الصـابـرـةـ المـحـتـسـبـةـ،ـ هـبـةـ الـدـبـاغـ،ـ قـصـةـ السـنـوـاتـ التـسـعـ التي أـمـضـتـهـاـ فيـ فـروـعـ الـأـمـنـ وـسـجـونـ النـظـامـ.ـ بعدـ ذـلـكـ بـسـنـوـاتـ طـوـيـلـةـ قـرـأـ صـاحـبـناـ قـصـةـ خـمـسـ دـقـائـقـ أـخـرـىـ،ـ قـصـةـ بـرـاءـ السـرـاجـ الـقـادـمـ أـيـضـاـ منـ حـمـةـ.ـ قالـواـ لـهـ كـمـاـ قـالـواـ لـهـ:ـ "ـتـرـيـدـكـ خـمـسـ دـقـائـقـ"ـ،ـ إـلـاـ أـنـ دـقـائـقـهـ كـانـتـ أـطـلـوـلـ مـنـ دـقـائـقـهـ بـأـلـفـ يـوـمـ،ـ وـلـمـ تـكـنـ بـيـنـ سـجـنـيـ قـطـنـاـ وـدـوـمـاـ،ـ بلـ كـانـ جـلـهـاـ فـيـ بـاسـتـيـلـ تـدـمـرـ الرـهـيـبـ.ـ وـبـيـنـ هـذـهـ الـرـوـاـيـةـ وـهـذـهـ قـرـأـ صـاحـبـناـ "ـالـقـوـقـعـةـ"ـ؛ـ إـحـدـىـ عـشـرـةـ سـنـةـ أـخـرـىـ فـيـ بـاسـتـيـلـ مـقـابـلـ طـرـفـةـ (ـنـكـتـةـ)ـ أـضـحـكـ الرـجـلـ بـهـ رـفـاقـهـ ذاتـ يـوـمـ!ـ نـكـتـةـ مـنـ أـحـدـ عـشـرـ حـرـفـاـ،ـ دـفـعـ مـصـطـفـيـ خـلـيـفـةـ مـنـ عـمـرـهــ مـقـابـلـ كـلـ حـرـفـ فـيـهـاـ سـنـةـ فـيـ العـذـابـ.

الضغط يولد الانفجار. إن شعبـاـ عـاـشـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ الأـسـرـ وـالـقـهـرـ لاـ بـدـ أـنـ يـنـفـجـرـ،ـ وـقـدـ انـفـجـرـ أـخـيـراـ فـيـ وـاحـدـةـ منـ أـعـظـمـ الثـورـاتـ فـيـ التـارـيخـ،ـ للـخـالـصـ مـنـ وـاحـدـ مـنـ أـسـوـأـ أـنـظـمـةـ الـحـكـمـ فـيـ التـارـيخـ.

انفجرت الثورة السورية المباركة، فحاول النظام المجرم وقفـهاـ باـالـاعـتـقـالـاتـ التي بلـغـتـ عـشـرـاتـ الآـلـافـ فـيـ بـضـعـةـ أـشـهـرـ.ـ وـمـاـ لـبـثـ قـصـصـ الـاعـتـقـالـ وـالـتـعـذـيبـ أـنـ بـدـأـتـ تـخـرـجـ شـيـئـاـ بـعـدـ شـيـئـ،ـ فـعـاـدـ صـاحـبـناـ نـفـسـهـ أـنـ لـاـ يـقـرـأـ شـيـئـاـ مـنـهـ.ـ وـلـمـاـ يـفـعـلـ؟ـ لـيـزـدـادـ كـرـهـاـ بـهـذـاـ النـظـامـ المـجـرمـ وـحـقـدـاـ عـلـيـهـ؟ـ لـوـ جـمـعـتـ الـكـراـهـيـةـ الـتـيـ نـثـرـتـ فـيـ قـلـوبـ أـهـلـ الـأـرـضـ ثـمـ وـزـنـتـ بـمـاـ فـيـ قـلـبـهـ مـنـ كـراـهـيـةـ لـنـظـامـ الـأـسـدـ لـرـجـعـ مـاـ قـلـبـهـ.ـ لـيـزـدـادـ إـصـرـارـاـ عـلـىـ الثـورـةـ؟ـ لـوـ بـقـيـتـ فـيـ حـيـاتـهـ دـقـيقـةـ لـنـطـقـ بـلـنـطـقـ بـالـشـهـادـتـينـ أـوـلـاـ ثـمـ اـسـتـوـدـعـ أـهـلـ سـورـيـاـ ثـورـتـهـ وـأـصـاـهـمـ أـنـ يـمـضـوـاـ فـيـهـاـ إـلـىـ لـحـظـةـ الـانتـصـارـ،ـ وـلـوـ جـالـدـوـاـ هـذـاـ النـظـامـ المـجـرمـ وـلـفـاءـهـ الـأـقـويـاءـ أـلـفـ عـامـ.

نعمـ،ـ قـالـ صـاحـبـناـ لـنـفـسـهـ:ـ لـاـ حـاجـةـ لـيـ بـقـاءـةـ قـصـصـ الـاعـتـقـالـ وـالـتـعـذـيبـ،ـ وـلـاـ سـيـماـ الـقـصـصـ الـتـيـ تـكـونـ حـرـائـرـ سـورـيـاـ الـصـيـنـيـاتـ الـعـفـيـفـاتـ جـزـءـاـ مـنـهـاـ.ـ لـكـنـ مشـكـلـةـ هـذـاـ الرـجـلـ أـنـ يـقـرـأـ كـثـيرـاـ،ـ فـمـاـ لـبـثـ أـنـ عـادـ إـلـىـ عـادـتـهـ وـرـاحـ يـقـرـأـ كـلـ مـاـ نـشـرـتـهـ الـصـفـحـاتـ،ـ فـعـادـ الـكـابـوـسـ ثـقـيـلـاـ أـسـوـأـ مـنـ أـيـ وـقـتـ كـانـ.

لوـ حـلـ صـاحـبـناـ أـنـهـ لـاـ يـكـادـ يـمـرـ يـوـمـ لـاـ يـفـكـرـ فـيـهـ بـالـمـغـيـبـيـنـ وـرـاءـ الـقـضـبـانـ لـمـاـ حـنـثـ.ـ إـذـاـ اـشـتـدـ حـرـ الصـيفـ تـسـاءـلـ:ـ كـيـفـ يـعـيـشـونـ فـيـ هـذـاـ حـرـ الـخـانـقـ بـلـاـ نـسـيمـ مـنـ هـوـاءـ؟ـ إـذـاـ اـشـتـدـ بـرـدـ الشـتـاءـ تـسـاءـلـ:ـ مـاـذـاـ يـصـنـعـونـ فـيـ هـذـاـ بـرـدـ الشـدـيدـ بـلـاـ وـطـاءـ وـلـاـ غـطـاءـ؟ـ إـذـاـ أـصـابـهـ الصـدـاعـ (ـوـمـاـ أـكـثـرـ مـاـ يـصـبـبـهـ الصـدـاعـ)ـ فـكـرـ:ـ كـيـفـ يـصـنـعـ الـمـصـدـوـعـونـ هـنـاكـ بـلـاـ دـوـاءـ؟ـ إـذـاـ فـكـرـ فـيـ الصـدـاعـ

فَكَرْ فِي كُلِّ دَاءٍ يَبْقَى صَاحِبُهُ بِلَا دَوَاءٍ، ثُمَّ فَكَرْ فِي مَا يَصِيبُ الْحَرَائِرَ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً... إِذَا وَصَلَتْ أَفْكَارَهُ إِلَى الْحَرَائِرَ شَهْقَ وَوَقَفَ عَنِ التَّفْكِيرِ، وَرَفَعَ يَدِيهِ إِلَى السَّمَاءِ فَنَادَى: اللَّهُمَّ اكْشُفْ هَذِهِ الْغَمَّةَ وَارْفَعْ هَذَا الْبَلَاءَ!

-7-

وَالْأَطْفَالُ؛ كَيْفَ يَحْتَمِلُ الْأَطْفَالُ الْضَّعْفَاءَ مَا يَكَادُ يَعْجَزُ عَنْ حَمْلِهِ الرِّجَالُ الْأَشْدَاءُ؟ مِنْذُ أَنْ نَسَرَ صَاحِبَنَا ذَاتَ يَوْمٍ فِي صَفْحَتِهِ مِنْشُورًا بِعِنْوَانِ "أَقْمَارٌ وَرَاءِ الشَّمْسِ" وَهُوَ لَا يَكَادُ يَنْسَى تَلْكَ الْوِجْهَةَ الْبَرِيئَةَ فِي لَيلٍ أَوْ نَهَارٍ، فَهِيَ تَتَرَاءَى لَهُ فِي الْيَقْظَةِ كَمَا تَتَرَاءَى لَهُ فِي الْمَنَامِ. إِذَا عَجَزَ عَنْ نَسِيَانِهَا (وَأَنَّ لَهُ أَنْ يَنْسَى تَلْكَ الزَّهْرَاتِ!) رَاحَ يَفْكِرُ: هُؤُلَاءِ الْبُنَيَّاتِ وَصَلَانَا خَبْرُهُنَّ وَرَأَيْنَا صُورَهُنَّ، فَمَا زَانَ عَنْ آلَافٍ لَمْ نَعْرِفْهُمْ مِنْ الْأَطْفَالِ وَآلَافٍ؟ وَاحْرَرْ قُلُوبَاهُ وَيَا دَمَعَ عَيْنَاهُ عَلَى الطَّفُولَةِ الْبَرِيئَةِ الْمَسْفُوْحَةِ فِي مَذَابِ الْطَّغَاءِ.

-8-

مَهْمَا طَالَ اللَّيلُ لَا بَدَ لَهُ مِنْ آخِرٍ، وَإِنَّ أَشَدَ سَاعَاتِ اللَّيلِ ظَلَاماً هُنَّ آخِرُهُ. طَالَ لَيلُ الشَّامِ وَطَالَ حَتَّى يَبلغُ الْخَمْسِينَ وَزَادَ عَامَيْنَ وَنَصْفَ عَامٍ، فَقَدْ أَوْشَكَ فَجَرُ الْحَرِيَّةَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَى الشَّامِ عَمَّا قَرِيبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ. الْفَجَرُ طَالَ حَتَّماً وَالظُّلْمُ زَائِلٌ لَا مَحَالَةٌ، فَاصْبِرُوا يَا إِخْوَةَ السَّجْنِ، اثْبُتوْا فِي هَذِهِ السَّاعَةِ الْأُخْرَى، الْمَوْعِدُ فِي الشَّامِ الْمَحْرُرُ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَمَنْ سَبَقَ فَالْمَوْعِدَ فِي جِنَانِ الْخَلْدِ بِإِذْنِ الْمَوْلَى الْكَرِيمِ الرَّحِيمِ.

عَرْشُ الطَّغَاءِ وَحْكَمُ الظُّلْمِ مَنْسَحَقُ *** أَبْشِرْ أَخَيَّ سَيْمُوسِيِّ السَّجْنِ مَلْحَمَةً *** مَثَلُ الْأَسْاطِيرِ تُرَوَى عَبْرَ مَاضِنَا أَبْشِرْ أَخَيَّ سَيْمُوسِيِّ السَّجْنِ مَلْحَمَةً ***

الزلزال السوري

المصادر: